مُلَح ونوادر من كتاب
المختار في كشف الأسرار وهتك الأسرار
لعبد الرحيم بن عمر الجوبري
(توفي بعد 633 هـ/ 1236 م)

زين الدين عبد الرحيم بن عمر الشافعي الجوبري الدمشقي ، نسبته إلى قرية جَوْبَر شرقي دمشق . لا يُعرف تاريخ ولادته ولا وفاته ، ولا تفيد المصادر العربية عن سيرة حياته أي شيء ، فمعلوماتنا الوحيدة عنه هي المستقاة من مؤلفاته القليلة . ومن ذلك يتّضح لنا أن الجوبري عالم مؤلّف درس دراسة مستفيضة ، وعاش عيشة العالم المتجوّل في جميع بلاد الإسلام حتى بلغ الهند ، وسافر كثيراً في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، فقد زار مصر كما يذكر في كتابه مرات عدّة عام 607 هـ وعام 617 هـ و عام 623 هـ و 626 هـ ، كما زار آمد وأنطاكية ثم حرّان عام 613 هـ ، والرّها عام 616 هـ ، وساحل جدّة والحجاز واليمن والصعيد وعيذاب ، وجال في المغرب وتونس وكذلك الهند وهندبار .

وفي عام 629 هـ ، قصد الجوبري بلاط الملك الأرتُقي مسعود بن مودود صاحب آمد وحصن كيفا الذي ولي الحكم عام 618 هـ أو 619 هـ ، وأقام لديه مدّة فكان يتردّد على مجلسه . وذكر أن الملك المسعود طلب إليه تأليف كتاب له عن أسرار أرباب الصنائع والعلوم ، على غرار كتاب ابن شهيد المغربي المشتهر آنذاك : «كشف الدَّك وإيضاح الشك» ، فقام بوضع كتابه المعروف بكتاب «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار» على ثلاثين فصلاً ، سجّل فيه ما خبر من تدليس وحيل من صادفهم في رحلاته من الرحّالين والدجّالين وأصحاب الكيمياء والصيارفة ؛ فكان هذا الكتاب بحق كنزاً لمن يرغب بدراسة عادات أهل ذلك العصر ، كما يرى المستشرق بروكلمان .

obeikandl.com

وكان البغدادي في كتابه «هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين» قد ذكر أن الجوبري فرغ من تأليف كتابه عام 663 هـ ، وهذا وهم على اعتبار أن زيارة المؤلف لبلاط الملك المسعود كانت عام 629 هـ ، وفي نفس ذلك التاريخ طلب إليه تصنيف الكتاب ، فلا يستقيم أن يكون أمضى في تأليفه 34 عاماً . ومن الواضح بالتالي أن التاريخ المذكور قد ورد بنتيجة غلط من النسخ أو الطباعة ، ولا ريب أن البغدادي يريد أن الكتاب قد تمّ تأليفه عام 633 هـ . وهذه فائدة جديدة ، وآخر ما يُعرف من تاريخ لحياة المؤلف ، أما تحديد وفاته فيبقى في ضمير الغيب .

ظهرت أول طبعة للكتاب في دمشق عام 1302 هـ ، وأعقبتها طبعة أخرى في إسطنبول دون ذكر لتاريخ الطبع ، ثم أعيد طبعه في القاهرة مرتين أولاهما عام 1316 هـ والثانية مُغفلة التاريخ (حوالي 1908 م) . وله من المؤلفات أيضاً : «الصراط المستقيم في علم التنجيم» و «كشف أسرار المحتالين ونواميس الخيّالين» .

قمنا بنقل بعض النصوص المتعلقة بدمشق من كتاب المختار ، بالاعتماد على طبعة دمشق وطبعة القاهرة الأولى ، ولهذه النصوص أهمية خاصة لأن مؤلفها ذكر فيها بعض مشاهداته الشخصية بدمشق آنذاك ووقائع مما لا نجد له مثيلاً لدى مؤرخي ذلك العصر ، ومنها الحكاية الطريفة التي جرت للسلطان نور الدين مع العجمي ، التي انفرد الجوبري بذكرها دون غيره من المؤرخين .

وقُصارى القول ، أن هذا الكتاب يبقى واحداً من أطرف وأثمن مصادر تراثنا في التاريخ الاجتماعي ، وهو ما زال ينتظر حظّه للظهور في طبعة علمية مستوفية لشروط النشر والتحقيق العلمي .

المصادر :

كتاب المختار للجوبري ، مقدمة المؤلف .

دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة الجوبري لبروكلمان .

هدية العارفين للبغدادي 1 : 524 .

كتاب

المختار في كشف الاسرار للعلامة زين الدين

عبد الرحيم بن عمر الدمشقي المعروف

بالجوبري رحمه الله تعالى

امين

قال في كشف الظنون

كشف اسرار المختالين هو للفاضل الاوحد

الشيخ عبد الرحيم بن عمر الدمشقي وهو

مؤلف يشتمل على ثلثين فصلا

كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار – طبعة دمشق ، 1302 هـ

obeikandl.com

كتاب

المختار فى كشف الاسرار للعلامة
زين الدين عبد الرحيم بن عمر
الدمشقى المعروف
بالجوبرى رحمه
الله تعالى
آمين

ويليه الكتاب المسمى بالسحر الحلال فى الالعاب السيماويه
وبعض فوائد صناعيه مجربه

قال فى كشف الظنون

كشف أسرار المحتالين هو للفاضل الاوحد الشيخ عبد الرحيم بن
عمر الدمشقى هو مؤلف يشتمل على ثلاثين فصلا

كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار – طبعة القاهرة ، 1316 هـ

obeikandi.com

من فصل كشف أسرار الذين يدّعون المشيخة

وقد ظهر بدمشق رجل يُقال له المقصود فادّعى المشيخة ، وكان يُظهر الثمار في أوقات لا يمكن أن توجد فيها . فلمّا استفحل أمره ادّعى النبوة وأنه عيسى ابن مريم ، فربط جماعة من كبار البلد ومن جملتهم أهل سوق المرحّلين وأهل المزَّة وكفرسُوسه وغيرهم . فلمّا كثر الرَّهج فيه سكن في موضع يُعرف بالصّفافَ ، وذلك في دولة الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وذلك مشهور بدمشق .

(المختار في كشف الأسرار ، 24)

وقد كان ظهر بدمشق رجل يعرف بالشيخ علي ، وسكن أرض حوران وادّعى المشيخة وتبعه خلق كثير . وكان أصل مذهبه أنه يقول لمن يريد أن يتتلمذ له : لا تمنع النفس شيئاً من حظّها ، فمهما طلبتْ نفسك فهو حقّها فأبلغها ذلك ! وله أحاديث عجيبة . وهذا الرجل ظفر به السلطان الأشرف وحبسه في حصن عرقا ، فأقام حتى مات السلطان . والأمور يطول شرحها .

(المختار في كشف الأسرار ، 30)

من فصل كشف أسرار الرهبان

ومن ذلك أيضاً الكنيسة التي بصيدنايا [1] ، وهي قرية من عمل دمشق ، ولهايوم تجتمع الناس فيه ، ولهم فيها بركة الزيت يؤخذ منها في ذلك اليوم شيء عظيم للبركة . وقد ارتبط عليها جميع الطوائف ، وذلك أنهم أخذوا قرمة نخلة ، ثم نزلوا عليها بالمدقّات حتى صارت مثل السفنج ، ثم غشّوا عليها بثوب شعر مثل المنخل ، ثم وضعوها في ذلك الموضع .

(1) بلدة مشهورة في هضبة القلمون شمال شرق دمشق ، بها أديرة أثرية مشتهرة .

openkandil.com

فإذا جاء العيد الذي لها سقوا تلك القرمة بالزيت ، ثم ثقّلوها بشيء يوازن بروز ذلك ، فتبقى ذلك اليوم ترشح طول النهار . والناس يأخذونه للبركة وإزالة الأمراض ، فصار لها ذكرٌ وشأن .

(المختار في كشف الأسرار ، 40)

من فصل كشف أسرار أهل الكاف
وهي الكيمياء

ومن أعجب ما صادفتُه وأغرب ما وقفتُ عليه ، أنه كان لي بدمشق صديق نصراني صائغ يُعرف بابن ميسرة . وبينما هو في بعض الأيام جالس في الدّكان إذ قد أتى إليه رجل متميِّز فسلّم عليه ، ثم ناوله سبيكة فضّة مقدار ثلثماية درهم ، وقال : لعلّ منادياً يبيع لي هذه السبيكة . فأخذها منه وقال : يا سيّدي على الحمى ؟ قال : نعم ، وعلى الرُّوباص . وأعطاها للمنادي ، فنادى عليها وباَعها المائة بمائة وعشرين . هذا وقد أصعده إلى الدّكان وأجلسه في جانبه ، فلمّا قبض الثمن دفع للمنادي أجرة وافرة ، ثم شال خمسة دراهم ، وقال للصائغ : سيِّر لنا بعض أجراك يشتري لنا بهذه شيئاً نأكله بحسب المالحة ، والحرام يُلزمني لا بدّ من ذلك . فبعث واشترى شيئاً من المأكول فأكلوا وتحدّثوا ساعة ، ثم نزل وقد جعل تحت نطع الصايغ عشرة دراهم .

وغاب أياماً ، ثم عاد وسلّم وصعد وقد فرح به الصائغ ، فتحدّثوا ، ثم طالع سبيكة أكبر من الأولى ، فقال : ادفعها للمنادي ، فدفعها له فبيعت المائة مائة وخمسة وعشرين . فقال للصائغ : إن كنتَ تحتاجها فخذها وزناً بوزن فأخذها منه . ثم عمل مثل المرّة الأولى ، فمنعه من ذلك ، فقال : يا فلان لأيّ سبب تفرِّط بهذه الفضّة ؟ فقال له : يا هذا ، هذه السّبيكة تكلف عليّ المائة درهم ونصف ، فما عسى أن يروح منها ؟ . . فلمّا سمع الصائغ ذلك عَظُم في عينيه .

ثم غاب أياماً وأتى ولم يصطحب معـه سبيكة ، فسلّم وصعد فتحدّثوا . وكلّما عبر شيء مثل حلاوة أو غيرها يشتري ويدفع القيمة للبائع كما يطلب ، ويأكل هو ومن في الدّكان . فأقام يتردّد أياماً ولم يصحب معه شيئاً من السبائك ، فسأله الصائغ ، فقال : والله كنت قد عملتُ إكسيراً وفرغ . . فلمّا سمع الصائغ ارتبط ، ثم تحدّث معه ساعة ، وقال : أشتهي منك أن تجبر قلبي وتأكل عندي خبزاً وملحاً في داري . فقال : ما أكلّفك ! فأقسم عليه ، فقال : إذا كان ولا بدّ من ذلك فهذه عشرون درهماً اعمل لنا بها شيئاً نأكل ، والحرام يُلزمني لا بدّ من ذلك . ثم تواعدوا إلى الغد .

فلمّا كان الغد جاء الرجل إلى الدكان فوجد ابن الصائغ قاعداً في الانتظار ، فأخذه وراح به إلى الدار ، ولمّا استقر به الجلوس قدّم شيئاً كثيراً فأكلوا ثم أحضروا حَلْوا وأكلوا . فقال الصائغ : يا سيّدي أما تعمل إكسيراً ؟ فقال : يا أخي عندي نفقة كثيرة وما أنا محتاج إلى عمله في هذا الوقت ، وليس لي في هذهِ البلدة مكان ولا صاحب ، وأنا وحدي ما أقدر أدبّر هذا .

فقال له الصائغ : هذه القاعة هي ملكي ومالي فيها نساء ولا حريم ، وإنما هي برسم صديق أو ضيف يأتيني ، وأنا أخليها لك وأساعدك وأخدمك ، وابني يكون في الدّكان ، وما تحتاج أحضره لك . فقال : أكثر ما أريد عشرة دراهم أعملها إكسيراً ، ومتى صار يُعمل منه قناطير ، إلاّ أنه يريد تعباً وطول روح ، وأنا اليوم مالي همّة للعمل لأن عندي شيئاً أنفقه سنة وعشرة . ثم تمنّع عليه وهو يسأله ، ثم مسكه تلك الليلة عنده وتمكّن منه بالحديث ولم يزل يُلحّ عليه حتى تقرّر بينهم الأمر . ثم تحالفوا على وفاء العهد وأن الصائغ يقنع من الإكسير بأيسر ما يكون والباقي له ، فقال له : بل أنا أقنع منه بمثقال وخُذ أنت الباقي . ففرح الصائغ ، وحسب أنه يتعلّم الإكسير .

ثم اتفقوا إلى يوم واجتمعوا ، واشتروا الحوايج ووزن الرجل ثمنها ، ولم يخلِّ الصائغ يخسر شيئاً . فلمّا حصلت الحوائج وسحقوا ما أمكن سحقه وهيأوا

حوائجهم ، قال الرجل للصائغ : تريد أن تعمل إكسير ذهب أو فضّة ؟ فقال : من ذا شيئاً ومن ذا شيئاً ، فقال : اقسم هذه الحوائج نصفين ثم هات ما أمكن من الذهب والفضّة حتى ننقعها في ماء هذه الحوائج ثلاثة أيام ، ثم ناخذ ماءها ونسقي به الأدوية ، الذهب للذهب والفضّة للفضّة .

فعمد الصائغ إلى ستمائة دينار فدفعها له ، فربطها في منديل أمامه ثم جعلها في وعاء فيه ماء ، ثم قال : هات فضّة . فأحضر له ألفين وخمسمائة درهم ففعل بها كما فعل بالذهب . ثم أقاموا سبعة أيام يخدمون تلك الحوائج . ثم بعد ذلك قال له : قُمْ واطلع إلى جبل المزَّة واجمع من الحصا الذي يُعرف ببُزاق القمر مقدار رطل واحد وتعال . فقام الصائغ وصعد إلى الجبل ينقّي بُزاق القمر قدر حاجته . وأما ذلك الرجل فإنه فتح صرّة الذهب والفضّة وأخذهم ، ووضع مكانهم فلوساً وقعد . فلمّا جاء الصائغ بالبزاق قال : هذا يريد يتكلّس في أتون الزُّجاج ليلة ، ثم يُخدم نصفه بماء الذهب ونصفه بماء الفضّة ، وإذا تكلّس اقسمه واخدمه ، وها أنا خارج لصلاة الجمعة . ومضى واستقبل الدرب ، فلم يطلع له خبر .

فأقام الصائغ ينتظره مدّة ثلاثة أيام لم يفتح صرّة الذهب ولا الفضّة ، فقال له ابنه : قد يكون أخذ الذهب وراح ! فقال : ما أجهلك . . وحقّ المسيح يقدر أن يعمل خزائن وأموالاً ، وهذا غير محتاج إلى ذهبنا . فقال له ابنه : كُن عاقلاً وافتقد الذهب . فقال: أنت قصدك تفسد علينا الشغل ؟ فقال : افتقد الذهب وخَلِّ عنك الطمع . فلم يفعل ، فقام ابنه وخالفه وفتح الصرّة وقد قارنت له ولأبيه النحوس ، وإذا بالذهب والفضّة قد صار فلوساً !. . فلَطَمَا على الرؤوس حتى ذهبت منهما النفوس . فقال : أنت ما سمعت مني الخبر .

فأبصر هذا الدَّهاء والمكر والحيل لهذه الطائفة .

(المختار في كشف الأسرار ، 64-68)

[حكاية العجمي والسلطان نور الدين]

ومن أعظم ما وقفتُ عليه ، وأظرف ما جرى للسلطان الملك العادل نور الدين بن زنكي ، رحمه الله تعالى ، حديثٌ يُكتب بماء الذهب [1] .

وذلك أن بعض العجم جاء إلى دمشق ، فأخذ ألف دينار مصرية فَبَرَدَها ، ثم أخذ لها دقّ الفحم وعقاقير وطحن الجميع ثم عجنه بغراء السَّمك ، وجعله بنادق وجفّفه جفافاً بالغاً . ثم لبس دلقاً وتزيّا بزيّ الفقراء ، وجعل تلك البنادق في مخلاة . ثم أتى إلى بعض العطّارِين فقال : تشتري مني هذا ؟ فقال : وأيّ شيء هذا ؟ قال : طَبَرْمَك خُراساني ! وهذه كلمة مصحفة معناها طترمك ، قال العطار : وهذا لأيّ شيء ينفع ؟ قال : ينفع من السُّموم ، ويدخل في جميع الأدوية التي تدفع الأخلاط ، وله نفع عظيم . ولولا أن أدركتني الحاجة ولم أقدر على حمله ما بعته ، لأنه يساوي وزناً بوزن عند من يعرفه ! فقال العطار : بكم هو ؟ قال : بعشرة دراهم . قال له العطار : بثلاثة . فأبى ، ثم اشتراه منه بخمسة دراهم ، وجعله في برنيّة . وأخذ العجمي الدراهم وراح .

فانظر إلى هذا الرجل وما أجسره ، باع ألف دينار بخمسة دراهم ، فهذه جسارة عظيمة ، وقد قال القائل : من خاطر بنفيس ملك نفيساً .

فلمّا انفصل عنه ، لبس بزّة حسنة من ملابس الوزراء ، ورتّب خلفه مملوكاً ونزل أكبر دار تصلح لوزير ، وصار يمشي في الجامع ويتعرّف بالأكابر من أهل البلد ، ويعمل السماعات ويخسر جُملةً ، ويدّعي الوصول في علم الصَّنعة وأنه يقدر أن يعمل في يوم واحد جملة من المال . وشاع ذلك في دمشق ، فسأله الكُبراء أن يعمل عندهم ، فكان يقول : ما أنا محتاج إلى أحد ، فالذي يريدني أعمل عنده أي شيء حاجتي إليه ؟ وأنا قد آليتُ أن لا أعمل شيئاً إلاّ للملك ، ومع هذا فإني لا أعمل شيئاً حتى يحلف لي أن مهما عملته لا يُنفقه إلاّ في سبيل الله .

---

(1) حقاً فهذه القصّة من أعجب وأطرف ما يكون ، ولعمري أنها تصلح لتمثيلية تلفزيونية .

فاتّصل خبره بالوزير ، فأحضره وآنسه ، ثم ذاكَرَهُ بشيء من ذلك ، فقال : قد كان من أمري أني حلفتُ أن لا أعمل شيئاً إلاّ للملك ، بعد أن يعاهدني أنه لا ينفق منه شيئاً إلاّ في سبيل الله تعالى . فإن حصل هذا الشرط عملتُ وإلا فلا سبيل إلى عمل شيء .

ولما سمع الوزير ذلك افتكر وقال : والله هذه سعادة للمسلمين وللسُّلطان ، هذه البلاد كلها للأفرنج إلى بانياس ، وكل يوم الغارات تصل إلى ديارنا ، فاذا عمل شيئاً نفتح به هذه البلاد وهذه نعمة عظيمة! ثم قال : أُعرّف السلطان ؟ قال : نعم ، إلاّ أنّك تجمع بيني وبينه حتى أستوثق منه باليمين . ثم ركب الوزير فاختلى بالسلطان ، ثم عرّفه ذلك ، فقال : والله قد هجس في فكري أنه لا بدّ من شيء يوصلنا إلى قلع شأن هؤلاء الملاعين . فأحضر الرجل في غاية الكرامة .

فأخذ له خلعة حسنة وبغلة بسرج ملجمة ، فألبسه الخلعة وأركبه إلى جانبه ، ثم صعد واجتمع به السلطان . ثم تحدّثا فقال : أصحيح ما قاله الوزير عنك ؟ قال : نعم يا مولانا ، لكن كل من ادّعى هذه الدرجة فهو كذّاب نصّاب دكّاك ، بل أنا شَرطي مع السلطان أن لا أمسّ بيدي شيئاً ، بل أكون بعيداً من مولانا وأقول له : افعل كذا واصنع كذا ، ومولانا يفعل . فلمّا تقرّر الأمر على هذه القاعدة قال السلطان : باسم الله اشرع على بركة الله .

فأخذ العجمي ورقة وكتب لهم استدعاء الحوائج ، من العقار الفلاني كذا [ومن العقار الفلاني كذا] ، ثم قال : من الطَّبَرْمَك الخُراساني مائة مثقال . ثم دفع الورقة لأستاذ الدار ، وقال له : أحضر هذه الحوايج . فأحضر الجميع إلاّ الطَّبرمك ، فقال إنّه ما وُجد عند العطّارين . فقال العجمي : في مثل دمشق يعدم الطَّبرمك ؟ فقال السلطان : ما لنا شيء يُغني عنه ؟ فقال : لا والله ، ولا تخلو دمشق منه . بل إن مولانا السلطان يتقدّم إلى المحتسب بتفتيش دكاكين العطّارين ، فإذا كان الغد ركبت أنا وهو وشهود عدول نفتح حانوتاً حانوتاً نفتّشه ، فلا بدّ أن نجده . فقال : نعم .

وكان المحتسب يُقال له القائد ، فأرسلوا إليه ففعل ذلك ، وركب العجمي من الغد وأخذ معه العُدول ونزلوا مع القائد ، ثم جعلوا يفتحون دكاكين العطّارين حتى انتهوا إلى دكّان الذي باعه العجمي الطّبرمك . فقعد الشهود والمحتسب ، ونزل صاحب الدّكان وجعل يضع قدّامهم برنيّة بعد برنيّة ، إلى أن جاءت البرنيّة التي فيها الدكّة . فلمّا رآها العجمي تهلّل وجهه فرحاً وقال : هذا السلطان سعيد ! ثم قال للشهود والمحتسب : اختموا عليها بختومكم ثم ابعثوا بها إلى القلعة . ففعلوا ذلك .

فقال لصاحب الدّكان : من أين لك هذه ؟ فقال : ابتعتها من رجل فقير . قال : بكم ؟ قال : بخمسة دراهم . فأخذ منديله وقال : هذه عشرة دراهم من عندي ، ولا تبطل شغلك ولا تطلع إلى الديوان .

ثم ركبوا جميعهم ، وطلعوا إلى القلعة وعرّفوا السلطان . وقال له العجمي : هذه أوّل سعادتك ، هذا يعمل شيئاً كثيراً ، فيشرع مولانا من الليلة وبالله التوفيق .

فلمّا أمسى عليهم المساء ، استدعوا ما يحتاجون إليه من الآلة ، ثم قعد السلطان وخادم في صُفَّة والعجمي قد اعتزل عنهم في ناحية . ثم قال : يزن مولانا من العقار الفلاني كذا ومن الآخر كذا ، وجعل يعدّ العقاقير جميعها ، ثم قال : ومن الطَّبرمك مائة مثقال . ففعل ذلك حتى احترقت جميع تلك الحوايج ودار الذّهب . ثم قال : اقلب على بركة الله تعالى ! فقلب البودقة ، فنزلت سبيكة ذهب مصري لا يكون شيء أحسن منه . فلمّا نظر السلطان إلى ذلك حار ودُهش ، ثم قدّم له تلك الليلة شيئاً يساوي ألف دينار .

ولم يزالوا يعملون حتى فرغ ذلك الطَّبرمك ، فطلبوه فلم يجدوه . فقال السلطان : كيف نعمل بالطّبرمك ؟ فقال العجمي : نبعث نجيب منه من خُراسان ، فإنه معدن في الجبل في مغارة إذا أراد إنسان أن يحمل منه ألف حمل جمل . وأنا دخلتُ إليها وأخذتُ منها شيأً كثيراً ، وعندي في داري منه مقدار قنطار .

فلمّا سمع السلطان قوله قال : ما لهذا الأمر غيرك ، فإن تعذّر الوصول إلى المغارة فاحمل الذي عندك ، وإن وصلت إلى المغارة فاحمل مهما قدرت . وأنا أكتب معك كتاباً إلى السُّلطان الأعظم لايمنعك أحد من ذلك !

فلمّا سمع العجمي قال : إن رأى السلطان أن يبعث غيري ، فأنا قد طابت لي دمشق وخدمة السلطان . قال : لا غنا عن رواحك ، فإن لك في ذلك أعظم الأجر . ولم يزل عليه حتى أنعم بالسفرَ ، فلمّا شرع يتجهّز جهّزه بستين حمل منها شُرَب عمل تنيس ودمياط ومن عمل اسكندريّة ، ومنها سُكَّر بالأحمال والجمال والجمّالين ، ثم أعطاه خيمة ومطبخاً وفرّاشين ونفقة الطريق إلى بغداد وإلى العجم ، وكتب معه كتباً إلى سائر البلاد بالمراعاة والخدمة والإعانة . ثم خرج السلطان وأرباب الدولة إلى وداعه ، وراح وقد وصل هذا إلى الحجر المكرّم وحصل له الإكسير الأعظم .

ومن أعجب ما في هذه القضيّة أنه كان بدمشق رجل يكتب أسماء المغفّلين المُخارفين ، فسمع بهذه القضيّة ، فكتب في رأس جريدته : «السلطان نور الدين محمود بن زنكي رأس المغفّلين» . فشاع ذلك ولم يعلم أحد باطن القضيّة ، حتى قيل للسلطان : قد كتبكَ شخصٌ رأسَ المغفّلين ، فقال : وأيّ شيء أبصر من تغفّلي حتى يكتب اسمي ؟ هاتوه ! فنزلت إليه الجنداريّة وقالوا له : باسم الله ، كلِّم السلطان . فأخذ الجريدة في كمّه ومشى معهم .

فلمّا وقف أمام السلطان ، قال : أنت فلان الذي تكتب أسماء المغفّلين ؟ قال : نعم . قال : وكتبتني ؟ قال : نعم ، وهذا اسمك . . ثم أظهره . فقال : وما بانَ لك من تغفّلي حتى كتبتني ؟ فقال : ومن يكون أغفل منك ؟ جاءك عجمي نصّاب عمل عليك حيلة ودكّ عليك ألف دينار ، أخذ بها مال المسلمين وراح ! فقال : راح يأتي بطبرمك وكأنك به وقد جاء ومعه الطَّبرمك نعمل منه أموالاً لا تُحصى . فقال له : يا خوند إن رجع العجمي وجاء ، محيتُ اسمك من الجريدة وكتبتُ اسمه ، وما يكون في الأرض أغفل منه !

فلمّا سمع السلطان ذلك ، ضحك وقال : «اعطوه شيئاً يُنفقه عليه» . فأعطوه شيئاً وراح . وكان كلّما أفلس ، أخذ الجريدة ووقف على باب القلعة ، فإذا ركب السلطان ، فتح الجريدة ويقول : «ما جاء ، وهذا اسم السلطان مكتوب !» . فيضحك ، ويُطلق له شيئاً .

فانظر إلى هذا الدَّكّ والجسارة على بيع ألف دينار بخمسة دراهم .

فأقام السلطان على ذلك حتى مات [1] ، والطَّبرمك لم يأتِ .

(المختار في كشف الأسرار ، 68-74)

من فصل كشف أسرار الصيارف والدكّ عليهم

ومنهم من يدكّ على الصيارف ، فاعلم أن هؤلاء لم يكن في الطوائف أرجل منهم ، وذلك أنهم يدكّون على من هم أشطر الطوائف . فإن الصّيارف يتعيّشون على كل الناس وهؤلاء يتعيّشون عليهم ، فهذه عين الشطارة .

وقد رأيتُ بدمشق رجلاً من أهل حلب يُعرف بجمال الدين يوسف ابن النقّاش ، وهو متميّز وعليه حشمة ظاهرة ، ورأيته يدكّ على الصيارف . فإذا أراد ذلك أتى إلى الصيرفي ومعه دينار أو درهم ، فإن كان ديناراً يكون بُهْرُج ، وإن كان درهماً يكون نحاساً . ثم إنه يكون معه إما دينار أو درهم جيّد على قدر ما يريد أن يدكّ ، ويكون على نقد ذلك الزغل الذي معه .

فيقف على الصيرفي وبدفع إليه الدينار الجيّد ، ويقول : إدفع لي بهذا دراهم . فيأخذ الصّيرفي الدينار ثم ينقده ، ويزنه ويدفع إليه الدراهم ، فيقول :

---

(1) وكانت وفاة السُّلطان العادل نور الدّين محمود بن زنكي الشّهيد في عام 569 هـ .

كم وزنت ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيقول : ما آخذ إلاّ كذا وكذا ، فيقول : ما أعطيك إلاّ هذا القدر ، فيقول : هات الدينار . فيناوله الدينار بمقدار ما يحصل في يده وقد جعله موضع الدينار البُهْرُج وخلّف له البهرج ، وقال : هات ، وهذا ناقص عن حقّي !

فيكون الصّيرفي قد وزن الدينار ونقده ، فياخذه ويرميه في صندوقه ويدفع له الدراهم طيّب القلب بوزنِه ونقدِه ، وكذلك الدّرهم أيضاً .

فافهم ذلك ترشد .

(المختار في كشف الأسرار ، 136-137)

* * * * *

obeikandi.com

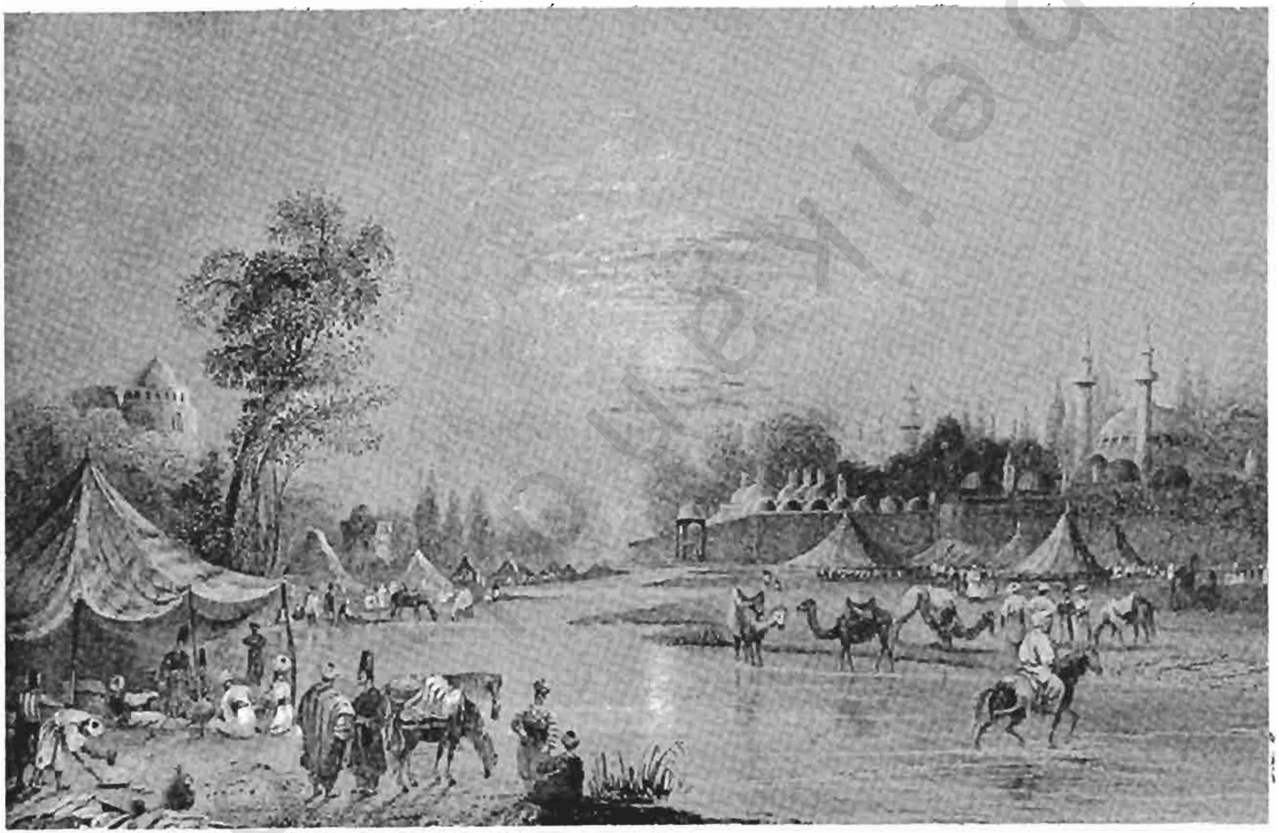

التكية السّليمانية ونهر بردى ، مع المدرسة العزّية البرّانيّة إلى يسار الصورة

obeikandl.com

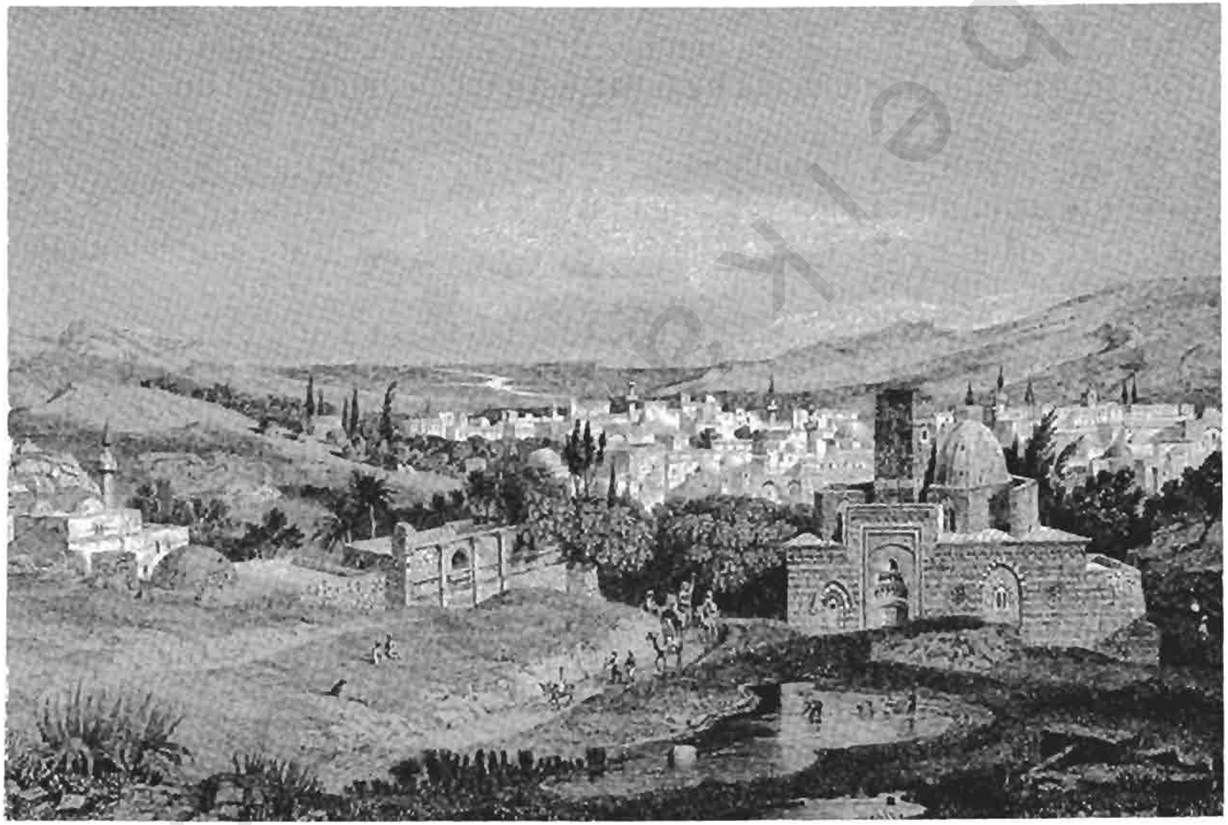

النّيرب الأعلى وتربة العادل كتبغا ، مع دار الحديث الناصرية وجامع الأفرم إلى يسار الصورة

obeikan.com